شعرنا المعاصر يواكب النهضة الحديثة

بقلم صالح جواد الطعمة

هذا سؤال ، كم دار على ألسنة النقـــاد والكتاب ، وهم يتناولون مجموعـــات الشعراء بالنقد ، وكم تطرّق اليه الأدباء ، مختلفين حول رسالة الشاعر في الحياة ، وتحديدهـا ، لا سيما في الآونة الأخيرة ؛ ولذا كان من الطبيعي ان أتناول هـــذا الموضوع المهم بشيء يسير من البحث والدراسة ..

ومن حقك ، قبـــل كل شيء ، ان تسأل كيف يواكب الشعر النهضة ؟ أيواكب الحياة الجديدة التي تخلقهـا النهضة ؟ ثم ما هي المواكبة ؟أهي ان يتطرق الشعر الى موضوعات تناسب الحياة الجديدة ، ويعبر عنها تعبيراً اميناً ، ام يدعو في تعبيره الى حياة افضل ؟ وكيف يكون هـذا التعبير ، أكما كان في العصور القديمة ام يستجيب لمؤثرات النهضة ؟ !

اما ما هو الشعر الذي يواكب النهضة ، فهذا ما لا تسهل الاجابة عنه ، ما دمنا نؤمن بان للشعر مذاهب متباينـة ، لا يصح إنكارها ولا يجوز التغافل عنها ، وما دمنا نؤمن بان هذه المذاهب المتباينة لا تتفق على نوع الشعر المواكب للنهضة ، او بالأحرى تختلف في تحديـد رسالة الشاعر ؛ فهـذا الرومانتي يفهمها فهماً يغاير الرمزي ، وهـــذا يختلف عن الواقعي او السريالي في تحديدها ، ولكن ما لنا وهذه المذاهب المتضاربة ؟ لنسأل ما هي رسالة الانسان ، في عالمه اليوم ؟ ان كل انسان مسؤول عن دعم قوى الخير ، بما يملك ، لاقامة حياة انسانيـة رافهة على هذه الأرض الطيبـــة ؛ ومطلوب من كل فرد او مفروض عليه — ان يعمل مخلصاً للاهتداء الى طريق الخـلاص مما يسبب شقاء الانسان ! وعلى هذا الأساس ، مـاذا يستطيع الشاعر ان يفعله ، لتأدية رسالته ، على أتم وجه ، في الحياة ؟

انه ، كما يبدو لي ، يستطيع — وليس هنـــالك اولى من الأديب مَن يستطيع — ان يصور آلام الانسانية وما يعانيه المجتمع البشري من قلق واضطراب ؛ داعيـــاً في تصويره الى اشاعة الخير والعدل والمحبة بين الناس ، عـلى اختلاف ألوانهم وأوطانهم واديانهم دون تمييز . واذا استطاع ان يفعل ذلك ، قولا وعملاً ، فقد حقق رسالته وأدى واجبه . ويبدو لي ان القائلين بعدم مواكبة الشعر للنهضة ، يعتمدون الى حد كبير ، على ضآلة الواقعية في الشعر ، ويذهبون الى ان الشعر ، لهـذا الاعتبار ، لا يؤدي رسالته ، او يحقق للمجتمع ما تتطلبه النهضة او حياته . ويعارض هذا الرأي الدكتور محمد مندور في دفاعه عن مذهب « الفن للفن » قائلاً : « واذا كان هناك من لا يخلو نقدهم لمذهب « الفن للفن » من وجاهة فهم الاشتراكيون الذين يريدون ان يتخذوا من الادب سلاحاً للكفاح وتحريك الجماهير ، لـكي تتحرر من امراضها الاجتماعية وبخاصة مرض الفقر ، فهم لا يطيقون ان يلزم الشعراء ابراجهم العاجية ، ليصفوا الورد والرياحـين ، ولكنهم في ذلك مسرفون لأن من الواجب ان يحترم كل نشاط للروح البشرية ، وحاسة الجمال عند الفرد في حاجة الى التغذية كما ان ارهاف الحس وتهذيب الذوق كفيلان بان يرفعا من مستوى البشر وان يوقظا الاحساس بحقوق الفرد وواجباته .وليس من المعقول ان يسجن الادب والشعر بنوع خاص ، في منطقة الكفاح ، وان يتخلى عن كافة وظائفه الاخرى . و « الفن للفن » يلعب في الحياة النفسية دوراً هاماً ، إذ يفتح العقول والقلوب لجمال الطبيعة فيزداد اطمئنان الفرد اليهـــا ، وسكونه الى رحابها ، وهو بمثابة واحات نلقاها في وعثاء الحياة على طول شوطها المضني. ومن البين ان من وظائف الادب ان يسلبنا ، ولو الى حين ، جانباً من همومنا ، ويعزّينا عن قسط من آلامنا . والفن للفن لا يؤدي هذه الوظيفة فحسب ، بل ويؤديها مع تغذية حاسة الجمال التي تنهض في حياتنا بدور أبعد أثراً مما توهم الملاحظة السطحية .. »[1]

ولقد كنت في يوم ما ، اذهب مذهب الدكتور مندور ، في معارضته هؤلاء الذين يحمّلون الشعر رسالة اجتماعية فقط ، وكنت ارى رأيه في ان من وظائف الادب ان يسلبنا ، ولو الى حين جانباً من همومنا ، حين كنت اقول[2] : « انا أؤمن ان يستمد الشاعر صوراً من المجتمع ، وأؤمن انه يذنب في اداء رسالته اذا ما مر بمأساة على الطريق — وما اكثر المآسي — ولم تبعث من قلبه شعراً يعبر عنها ، ولكني لا اؤمن ان الحياة في هذه المآسي فقط ، او اننا نريد من الشعر خبزاً فقط ، لان هناك عملاً آخر للشعر هو اشاعة المتعة في نفوس القراء ، والا لجاز لهؤلاء ان يسألوا من الموسيقى والغناء والرسم والنحت ما يسألون من

(١) في الادب والنقد ص ١٢٥ .

(٢) مقدمة « ظلال الغيوم » ص ١١-١٢ .

الشعر ، لعلهم يستطيعون ان يجدوا في هذه الفنون الجميلة ما يشبع جوعهم ، اما المتعة الفنية التي تجود بها هذه الفنون لتخلق جواً ينسينا بعض الشيء من آلامنا ، فانها لا تشبع جياعاً او تكسو عرايا ! » ولكني اليوم ، لا اؤمن بمذهب « الفن للفن » الذي يدافع عنه الدكتور مندور وغيره من انصار المذهب المذكور ، لاننا نريد من الادب ان يسلبنا ، ولكن لا الى حين ، كل همومنا : ويعيننا على تحقيق حياة افضل .. اما سلب همومنا — الى حين — كما يريد مندور فهو كالمخدر الذي لا يقضي على المرض ، بل يبعد المريض قليلاً ، في غيبوبة عابرة ، عن آلام الداء ، ليستفيق بعد زوال اثر المخدر على صرخة الالم . اننا نريد دواء ينقذنا من الداء الفتاك ، نريد هيكلاً قوياً لحياتنا ، لا ترميما له يعرّض الهيكل يوماً الى الانهيار .

ولنعد الى هؤلاء القائلين بعدم مواكبة الشعر للنهضة ، لضآلة الواقعية فيه ، متسائلين : هل مضى عهد على الامة العربية كان فيه الشعر يصور آلام الناس اكثر من هذا العهد ؟ او ان هؤلاء يطمحون الى واقعية اجماعية عند شعرائنا اشمل مما هي اليوم ؟ ثم ايصح ان يكون هذا الطموح مبرراً لذهابهم الى عدم مواكبة الشعر للنهضة ؟! — انهم ليغمطون حق الشعر وما تحمله من عبء ، في حركاتنا التحررية منذ مطلع القرن العشرين ، ان حكموا عليه بعدم المواكبة . إن إمعانة في تأثير حياتنا المعاصرة على شعرنا العربي ، تهدينا الى ان جانباً كبيراً منه ، تغمره دفقات الألم والشكوى واليأس ، وحتى هذه الاغنيات المتألمة ، الشاكية اليائسة تعبّر عن حياة القلق والاضطراب والصدمات التي يعانيها الشباب العربي ، كما اننا نلمح في جانب كبير منه سجلاً للحركات التحررية التي خطت بالاقطار العربية خطوات طيبة ، وليس شعر الرصافي والزهاوي والكاظمي والبارودي وشوقي وحافظ ، وبدوي الجبل والاخطل الصغير وعمر ابو ريشة والشبيبي والجواهري والبصير وبحر العلوم وغيرهم .. ليس شعر هؤلاء بخافٍ علينا .. ثم هذه النزعة الانسانية التي تتدفق في جانب آخر من شعرنا المعاصر تدفقاً لم نجده في العصور الادبية الماضية ، أليست دليلاً على ان الشعر العربي يواكب النهضة ؟ ومتى كان الشعر العربي في اي عصر سبق ، يصوّر لنا ، على الاقل ، الحياة التي نحياها ؟ وهل كان يعيش فيه غير الامراء وارباب القصور ؟ او هل كانت الحياة العامة تجد لها مجالاً في اغاني الشعراء ، بقدر جزء ضئيل ، مما تجده اليوم فيها ؟!

أليس في كل هذا التطور ما لا يبرر لهؤلاء ان يذهبوا الى ان الشعر العربي المعاصر لا يواكب النهضة ؟!

★

هذا من الناحية الموضوعية ، اما من الناحية التركيبية ، فقد حكم على شعرنا بعدم المواكبة للنهضة الحديثة ، نتيجة معاناته من قيود القافية واغلال الوزن ما يعرقله كثيراً عن تحقيق رسالته في الحياة .

والواقع اننا لا نستطيع ان ننكر ما للقافية الواحدة من أثر غير محمود في توجيه الشعر حسب مشيئتها ، بل انه ليس بالغريب علينا ان نجد من يذهب الى ان القوافي هي التي تعين المعاني في احيان كثيرة ، بالرغم من غزارة اللغة العربية بالمفردات المتجانسة . ومن يذهب الى ان الشاعر يستطيع ان يذلل القوافي لمعانيه ، يسرف ويبالغ ، والقافية الواحدة في الشعر العربي ، كما لاحظنا آثارها ، اقوى من ان يذللها شاعر ، مهما أوتي من سعة الاطلاع وغزارة اللغة ، وكذلك قل عن الاوزان التي كانت عاملاً آخر يعرقل الشعر العربي في التعبير ..

كل ما يقال عن الوزن الواحد ، والقافية الواحدة ، أمر صحيح ، ولكن ألم يخطُ شعرنا العربي خطوات طيبة في التحرر من الوزن الواحد ، والقافية الموحدة ؟!

ان الشعر العربي ، بدأ يتململ للتحرر منذ أجيال بعيدة . قد لا اكون مخطئاً في تحديد نواة هذا التحرر في العهد الاندلسي ، حين بدأت القوافي تتعدد في القصيدة ، وحين ظهر الموشح الاندلسي الذي كان بداية تحرر من القافية الموحدة ، بل ان بعض الشعراء لم يكتف بتعدد القافية ، بل جعل الوزن متعدداً في شعره ، كأبي بكر بن زهير ، في قصيدته التي مطلعها « ما للمولّهْ » .

ولقد استطاع شعراء المهجر ان يتوسعوا في هذا التحرر ، واقتفى آثارهم ، الشعراء الشباب في الاقطار العربية المختلفة ، باهمالهم القافية الواحدة ، وقدموا لنا شعراً يكاد يجد له من الحرية ما يعينه على اداء رسالته . وقد ظهرت في العراق حركة منظمة للتحرر من القافية والوزن الموحدين ، سرعان ما شاعت في شعر الشباب فأصبح الوزن يختلف من بيت الى آخر ، بعدد التفاعيل مع العلم ان الأبيات جميعها تنتمي الى بحر واحد ..

ولا ريب ان مثل هذا التحرر ، كما يقول رئيف خوري ، يسعف الشاعر العربي ، لا على تنويع النغم فحسب ، بل على

ملاحقة سلك المعنى وعلى إهمال الحشو والجوازات التي كثيراً ما يفرضها التقيد بالوزن الواحد حتى على اسيـــاد النظم ومن بلغوا الغاية في تطويع البحور الشعرية وترويض اللغة .

وقد يكون من المناسب ان نذكر نموذجاً لهـــذا الشعر المتحرر ، فنختار قطعة لبدر شاكر السيّاب واخرى لنازك الملائكة وثالثة لعبد الوهاب البياتي :

تقول الآنسة نازك من قصيدة « لنكن اصدقاء » :

لنكن اصدقاءْ
الأكفّ التي عرفت كيف تجبي الدماءْ
وتحزّ رقاب الخليين والأبرياءْ
ستحس اختلاج الشعورْ
كلما لامست اصبعاً أو يدا
والعيون التي طالما حدّقتْ ، في غرورْ
ترمق الموكب الأسودا ،
موكب الرازحين العبيد ..

•

في بعيد الديارْ
ووراء البحارْ ،
في الصحاري ، وفي القطب ، في المدن الآمنهْ
في القرى الساكنهْ ،
اصدقاء بشرْ
اصدقاء ينادون اين المفر ؟
ويصيحون ، في نبرةٍ ذابلهْ
ويموتون في وحدة قاتلهْ ،
اصدقاء جياع ، حفاة ، عراه
لفظتهم شفاه الحياه ،
إنهم اشقياءْ
فلنكنْ اصدقاءْ !

•

ويقول الشاعر « السيّاب » في « حفار القبور[1] » على لسانه:

« هو ذا المساءْ
يدنو ، واشباح النجوم تكاد تبدو ، والطريقْ
خالٍ — فلا نعشٌ يلوح على مداه ولا عويل —
إلا النعيبْ
وتنهّد الريح الطويلْ !
وعلامَ تنعبُ هذه الغربان ، والكون الرحيبْ
باقٍ يدور ... يعجّ بالأحياء : مرضى ، جائعينْ
بيض الشعور كأعظمِ الأمواتِ — لكن خالدينْ
لا يهلكون ؟ علامَ تنعب ؟ إنَ عزرائيل ماتْ !
وغداً أموتُ غداً أموت ! » وهزّ حفّار القبورْ
يمناه في وجه السماء ، وصاح : « ربّ ! أما تثورْ
فتبيد نسلَ العار ، تحرق بالرجوم المهلكاتْ ،
أحفاد عادٍ ، باعة الدمِ والخطايا والدموعْ ؟
يا رب ما دام الفناءْ
هو غاية الأحياء ، فأمرْ يهلكوا هذا المساءْ !
سأموت من ظمأٍ وجوعْ ...

•

ونصغي الى الشاعر « البياتي »، في قصيدته « فييت مين[2] » يقول :

« وطلائع الثوار تقتحم الحصون
وانا واضواء الحرائق والجنودْ
وراء خط النار ، جرحى ، يائسونْ
« سوزان » طفلتنا تموتْ ..
في ليل باريسٍ ، واضواء الحرائق والجنودْ
والثائرون ،
بحرابهم ابداً ، برشاشاتهم يتقدمونْ
وحنينهم نحو اللظى ، يتقدمون
— المارد الجبار في اعماق آسيا يستفيقْ —
من حلمه القلق المميت
وعلى مياه الأنهر السوداء تطفو ، والتلول
جثث الخيول
وطلائع الثوار تعدم بالرصاص الخائنين ... »

•

وهكذا ترى هذه الحرية المحببة ، في التعبـــير الشعري ، تساعد شعرنا العربي على تحقيق رسالته الساميـــة في الحياة ، ومواكبة البشرية المتطلعة دوماً الى الأمام ... وقد يريـــد بعضهم ان يكون شعرنا ، بـــلا وزن ولا قافية . بحجة انه يستطيع آنذاك تأدية اعباء رسالته بكل حرية ، ولكنهـــم يسرفون في ذلك إسرافاً غير محمود ، يبعـــدنا عن الصواب ، ويضيّع علينا هذه الموسيقى التي يستعين بها الشعر عـلى التعبير عن مراميه ، كما يفقدنا هذا النغم الجميل ، يتمتع به القـارىء ،

(١) حفار القبور ص ٥ و ٦.

(٢) مجلة « الاسبوع » عدد (٢٠) .

ويأنس اليه ، حتى ولو لم يجد معنىً واضحاً فيه ..

وأمر آخر لا يمكن إهماله ، هو ان القافية قد تعين الشاعر على التعبير الكامل عن مشاعره ، ولعل قصيدة البحتري في رثاء المتوكل خير مثال لأثر القافية :

محلّ على القاطول اخلق دائره
وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره
كأن الصبا توفي نذوراً إذا انبرت
تراوحه اذيالها ، وتباكره

فهو قد وفّق ، كما قال الدكتور شوقي ضيف ، في ربط القوافي بالهاء الساكنة فجعل الصوت بعد انطلاقه على الكلمات والمقاطع ينخفض فجأة عند القافية ، وكأنه لم تعد فيه بقية ، ثم يعلو وينطلق في الاندفاع على البيت الثاني ، وما يلبث ان ينخفض فجأة كرة اخرى ، وهكذا ما يزال الصوت بين ارتفاع وانخفاض كأن الشاعر نائح فهو يرفع بالصوت ، وما يلبث ان ينخفض به لشدة التأثر والتعب وبذلك مثّل البحتري زفرات الحزن تمثيلاً جيداً [1] ونحن لا يهمنا كثيراً ان نعلم ان البحتري اختار حقاً هذه القافية المعبرة عن الحزن ام جاءت عفواً ؛ إنما المهمّ ان نعلم قدرة القافية — هي بالذات — على البوح بما يجول في خاطر الشاعر .

وإذا صحّ ان يكون للقافية مثل هذا الاثر ، فهل يجوز ان نخسره ؟ والقول نفسه يقال في الاوزان الشعرية ، فانها تكفل ، كما قلنا ، رنيناً موسيقياً بل لو تأملنا كل وزن لعرفنا من تفاعيله ان له لوناً مقصوداً من النغم ينساق مع مواضيع مخصوصة ، وكم أُوخذ الشعراء على عدم توفقهم في اختيار الوزن المناسب لفكرة القصيدة !

فاذن نحن لا نستطيع ان نهمل الوزن والقافية ، لئلا نخسر ما أشرت اليه ، كما ان القافية الواحدة والوزن الواحد الرتيب ، يقيّدان الشاعر بقيود تعرقله كثيراً عن اداء المعنى المراد . اما الطريقة التي تساعد الشاعر على تحمل رسالته وادائها ، فهي طريقة تعدد القوافي والاوزان التي أشرت اليها .. والثورة المباركة ، في تلك الطريقة ، على اغلال القافية الواحدة ، والوزن الواحد ، تكللت نتائجها بالنجاح فشاعت الى حد كبير في الشعر المعاصر ، رغم المعارضة والهجمات التي تعرضت لها ، شأن كل حركة تريد ان تتحرر من التقاليد ، وبهذا بدأ شعرنا المعاصر يواكب نهضتنا ، ويشارك قوى الانسان الاخرى ، لتعزيز حياة حرة سعيدة .

بغداد — **صالح جواد الطعمة**

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٥٤ — ٥٥

مسابقة « الآداب » للقصة

كانت « الآداب » قد اعلنت في اعداد سابقة عن اقامة مسابقة للقصة يحق لجميع ادباء البلاد العربية ان يشتركوا فيها ، وقد كان مقرراً ان ينتهي اجل قبول القصص في اول الشهر الماضي آب (اغسطس) من العام الحالي .

ولكن ظهر لهيئة التحرير ان عدد القصص التي وردت المجلة حتى الآن اقل بكثير مما كان منتظراً ، ولذلك رأت «الآداب» ان تمدد اجل المسابقة حتى آخر تشرين الاول من العام الحالي ، على ان تنشر القصص الفائزة في العدد الثالث عشر وهو العدد الضخم الذي ستصدره « الآداب » خاصاً بالقصة في مطلع العام القادم (كانون الثاني ١٩٥٤) .

وعلى ذلك تمدد «الآداب» أجل مسابقة القصة حتى آخر تشرين الاول الجاري بالشروط نفسها وهي :

١ — ان تكون القصة موضوعة غير مترجمة ولا مقتبسة ولا منشورة .

٢ — ان تعالج موضوعاً يهم الجماعات العربية او الفرد العربي .

٣ — ان تكتب كلها باللغة العربية الفصحى .

٤ — ألا تتجاوز ثماني صفحات من «الآداب» .

اما الجوائز فثلاث :

الاولى : ٣٠٠ ليرة لبنانية او ما يعادلها
الثانية : ١٥٠ » » » »
الثالثة : ٥٠ » » » »

وستتألف لجنة محكمة تعلن اسماء اعضائها فيما بعد .